المورد

عدد خاص
أبو الطيب المتنبي

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الاعلام - الجمهورية العراقية - المجلد السادس - العدد الثالث ١٣٩٧ - ١٩٧٧

الاتجاه الباطني في شعر المتنبي

بقلم
عزيز عارف
بغداد ـ الجمهورية العراقية

ان مذهب الباطنية يقوم ـ كما يقول الديلمي ـ على « انه لابد لكل ظاهر من باطن وهو المقصود في الحقيقة وهو بمنزلة اللب والظاهر بمنزلة القشر » (١) . ويقول عنهم ايضا انهم « عموا بذلك جميع الكلام وانواع الاجسام ولم يعتبروا المطابقة بين الظاهر والباطن بل ان تاويلاتهم لا تناسب الظاهر من حيث الحقيقة والمجاز ، ولم يقتصروا مع ذلك على تاويل واحد بل اثبتوا تاويلا للتاويل وجعلوا للعبارة الواحدة ايضا تاويلات عدة » (٢) .

هذا الجانب الباطني واضح الملامح في شعر المتنبي ، غير انه ياخذ اشكالا مختلفة ، منها الغلو في الفخر ، ومنها تجاوز الحد في المدح ، ومنها الهجاء بالاطراء ، ومنها الرمز والاشارة ، ومنها التعمية والتمويه ، ومنها الالغاز والابهام .

ولقد قصدت وانا اعرض هنا لبعض الملامح الباطنية في شعر المتنبي ، الى ان ابرز اهمية هذا الجانب الباطني في فهم شعره وان انبه في نفس الوقت على ان الدراسات التي تتجاوز هذا الجانب وتكتفي بالوقوف عند ظاهر النصوص ، قد يفوتها ان تدرك ـ وهي تجد في البحث عن الحقيقة ـ الغرض الحقيقي الذي اراده المتنبي وقصد اليه .

قال ابو علي الفارسي (٣) :

قيل للمتنبي : لكل نبي معجزته فما هي معجزتك ؟

قال : هذا البيت :

ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى
عدوا له ما من صداقته بد (٤)

وما من شك في ان المتنبي وصاحبه كانا وهما في حوارهما هذا يتعابثان ويتمازحان ، وما من شك كذلك في ان المتنبي قد اختار بيته هذا اختيارا واراد به الاشارة فما الذي اشار بهذا البيت ؟

يقول الخطيب التبريزي في تفسيره ان المتنبي قد اراد به السلطان . وفي الحق ان هذا البيت تتمثل فيه ظاهرتان متميزتان في شعر المتنبي تواليان في اغلب قصائده ، تتلازمان حينا وتفترقان حينا اخر ، وتبدوان بوضوح تارة وتتواريان حتى لا تكاد تبينان تارة اخرى هما : ظاهرة التصدي للسلطان وظاهرة ازدواجية المعنى (اختفاء معنى باطن هو اصل وراء معنى ظاهر هو الشكل) . وكثير هم الشعراء الذين عرضوا بالسلطان وتصدوا له على توالي العصور ، وكثير هم الشعراء الذين آثروا الرمز والايماء فاختفت اشاراتهم وراء عباراتهم ، غير ان ابا الطيب المتنبي يتميز عن هؤلاء جميعا بانه وهو في عرين السلطان كان يقف منه موقف المجابهة ، يحتاط الى ذلك بهذه الرموز التي تدق احيانا حتى تصبح كرقية العقرب كما وصفوها ، وتبدو بينة كوضح النهار احيانا اخرى .

فمن اشاراته البعيدة هذا البيت :

ولو لم يرع الا مستحق
لرتبته اسامهم المسام

وقال الواحدي في شرحه :

« يقال سامت الماشية اذا رعت وهي سائحة واسامها صاحبها ويريد بالمسام ههنا الرعية . ومعناه :

لو كانت الامارة بالاستحقاق لوجب ان يكون اولئك الملوك رعية ورعيتهم ملوكا يسوسونهم لانهم احق منهم بالملك » (٥) .

---

(١) « بيان مذهب الباطنية وبطلانه منقول من كتاب قواعد عقائد آل محمد » ـ تأليف محمد بن الحسن الديلمي ـ ص ٣٩ ـ استانبول ـ مطبعة الدولة سنة ١٩٣٨ .

(٢) المصدر السابق ـ ص ٣٩ .

(٣) هو أبو علي الحسن بن احمد بن ابان الفارسي ، ولد بفارس وانتقل الى بغداد سنة ٣٠٧هـ وكان امام وقته في علم النحو ثم اقام بحلب عند سيف الدولة وتوفى سنة ٣٧٧هـ .

(٤) « الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ـ البديعي ـ ص٦٥ ـ تحقيق مصطفى السقا ومحمد شتا وعبده زيادة عبدة ـ دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٣ .

(٥) شرح ديوان المتنبي ـ الواحدي ـ ص١٦٢ طبع برلين سنة ١٨٩١ وشرح ديوان المتنبي ـ البرقوقي ـ ج٤ ص١٩٣ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت .

ومن اشاراته الواضحة قوله :

وجنبني قرب السلاطين مقتها
وما يقتضيني من جماجمها النسر

قال الواحدي : « يقول : بغضي السلاطين نهاني عن قربهم ، واني قاتل لهم فان النسر كانه ينتظر اكل لحومهم فهو يطالبني بجماجمهم » (٦) .

ولقد نسب المتنبي وهو يتمدى للسلطان الى الجنون حينا والى هوس العظمة حينا آخر ، والى الحمق تارة والى الاسراف في الغرور تارة اخرى . ورأى بعضهم ان الذي دعاه الى تحدي السلطان هو طموحه وبعد مرتقى همته وعزا آخرون ذلك الى براعته في صناعة الشعر .

وفي الحق ان الذين كتبوا عن المتنبي ـ قدماء ومحدثين ـ كانوا كما عبر ابو الفتح ضياء الدين ابن الاثير ـ « عادلين فيه عن سنن التوسط ، فاما مفرط في وصفه واما مفرّط »(٧) .

قال عنه الثعالبي : « وما زال في برد صباه الى ان اخلق برد شبابه ، وتضاعفت عقود عمره يدور حب الولاية والرياسة في رأسه ، ويظهر ما يضمر من كامن وسواسه ، في الخروج على السلطان ، والاستظهار بالشجعان والاستيلاء على بعض الاطراف » (٨) .

ويقول الدكتور طه حسين ان المتنبي كان « ثائرا على نظام الحكم المستقر في الكوفة ، ضيقا به راغبا في تغييره او جادا في هذا التغيير » (٩) ، ويعلل سبب ذلك « ان مولد المتنبي كان شاذا وبان المتنبي ادرك هذا الشذوذ وتاثر به في سيرته كلها ولم يستطيع ان يلائم بين نفسه الشاذة وبين البيئة الكوفية التي كان يراد له ان يعيش فيها (١٠) . ويقول في موضع آخر من كتابه (مع المتنبي) :

« لست ادري أتسعدنا النصوص التي بقيت لنا من شعر المتنبي ام لا تسعدنا ؟ ولكني قوي الشعور بان المتنبي لم يرحل الى الشام طالبا للرزق فحسب ، وانما ذهب الى الشام داعية من دعاة القرامطة في هذا القسم الشمالي من سوريا الذي لم يكن قد ادركه الاضطراب القرمطي كما ادرك غيره من اقسام الشام » (١١) .

ويقول عنه كذلك : « اقبل الفتى على بغداد قرمطيا منهزما حانقا على النظام الاجتماعي والسياسي وخرج من بغداد الى الشام واضاف حنقا الى حنق وسخطا الى سخط وازداد حظه من التمرد على السلطان والنظام » (١٢) .

وفي الحق ان الكوفة ومنذ ان ظهر القرامطة في سوادها في منتصف القرن الثالث الهجري ، كانت مسرحا لصراع عنيف بين القرامطة من جهة وبين الخلافة العباسية من جهة اخرى ، بل ان الكوفة وقبل ظهور القرامطة فيها كانت ميدانا للصراع بين العلويين من جانب وبين العباسيين من جانب اخر ، فلم يكن الحكم فيها مستقرا بل ان مقر الخلافة في بغداد كان أبعد مايكون عن الاستقرار .

يقول (المسعودي) عن الخليفة المعتز انه كان « يؤثر اللذات ويعدم الراي ... وغلب على اموره وقهر في سلطانه » (١٣) . ويقول عن الخليفة المعتمد :

« أهمل امور رعيته وتشاغل بلهوه ولذاته حتى اشفى الملك على الذهاب » (١٤) .

ويصف (المسعودي) حالة الخلافة في عهد الخليفة المقتدر فيقول : « افضت الخلافة اليه وهو صغير غر ترف ، لم يعان الامور ولا وقف على احوال الملك ، فكان الامراء والوزراء والكتاب يدبرون الامور ، ليس له في ذلك حل ولا عقد ولا يوصف بتدبير ولا سياسة وغلب على الامر النساء والخدم وغيرهم ، فذهب ما كان في خزائن الخلافة من الاموال والعدد بسوء التدبير الواقع في المملكة فاداه ذلك الى سفك دمه واضطربت الامور بعده وزال كثير من رسوم الخلافة » (١٥) .

وقال عن المقتدر ايضا : « وكانت فيه وفي ايامه امور لم يكن مثلها في الاسلام ... ومنها غلبة النساء على الملك والتدبير حتى ان جارية لامه تعرف بثمل القهرمانة كانت تجلس للنظر في المظالم الخاصة والعامة ويحضرها الوزير والكاتب والقضاة واهل العلم » (١٦) .

في جو هذا الصراع ولد المتنبي في الكوفة وعاش فيها فترة صباه . وكان الذي دعاه الى التمرد على السلطان والوقوف منه موقف المجابهة ، ليس هو شذوذ مولده كما يقال عنه ، انما هو فساد حكم السلطان وشذوذ نظامه .

وخرج المتنبي من الكوفة شقيا بائسا تتاجج في نفسه نار الثورة على الظالمين وهو يردد :

الى اي حين انت في زي محرم
وحتى متى في شقوة والي كم
والا تمت تحت السيوف مكرما
تمت وتقاس الذل غير مكرم
فثب واثقا بالله وثبة ماجد
يرى الموت في الهيجا جنى النحل في الفم

وظل المتنبي وهو بعيد عن الكوفة يستشعر الغربة وظلت جذوره دفينة حتى الاعماق في التربة التي شهدت احداث صباه ، ولم يستطع ان يتلاءم مع البيئة الجديدة التي وجد نفسه فيها ، وكان وهو الى جوار السلطان بعيدا كل البعد عن السلطان . وهذا هو الذي يفسر قوله :

---

(٦) شرح ديوان المتنبي ـ الواحدي ـ ص٢٨٩ .
(٧) المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر ـ لابي الفتح ضياء الدين نصر الله المعروف بابن الاثير ـ ج٢ ص٢٦٩ـ٢٧٠ طبعة الحلبي ـ مصر ١٩٣٩ .
(٨) يتيمة الدهر ـ الثعالبي ـ ج١ ص٩٣ .
(٩) مع المتنبي ـ طه حسين ـ ص٢٥ ـ دار المعارف بمصر .
(١٠) المصدر السابق ـ ص٢٥ .
(١١) المصدر السابق ـ ص٤٧ .
(١٢) المصدر السابق ـ ص٥٤ .
(١٣) التنبيه والاشراف ـ المسعودي ـ ص٣١٦ ـ القاهرة ١٩٣٨ .
(١٤) المصدر السابق ـ ص٣١٨
(١٥) المصدر السابق ـ ص٣٢٨ .
(١٦) المصدر السابق ـ ص٣٢٨ .

وما انا منهم في العيش فيهم
ولكن معدن الذهب الرغام

وقوله :

بما التعلل لا اهل ولا وطن
ولا نديم ولا كاس ولا سكن

وقوله :

ماذا لقيت من الدنيا واعجبه
اني بما انا باك منه محسود

ثم يعود المتنبي الى الكوفة بعد غيبة عنها دامت ستةعشر عاما فيلقي على مشارفها قصيدته التي يقول فيها :

لتعلم مصر ومن بالعراق
ومن بالعواصم اني الفتى
واني وفيت واني ابيت
واني عتوت على من عتا

والحق ان المتنبي في كل مواقفه من السلطان ، كان يقف منه موقف الند للند ، يرتفع بنفسه الى حيث يكون السلطان حينا فيقول :

وفؤادي من الملوك وان كا ن لساني يرى من الشعراء

ويرتفع بالسلطان الى حيث يكون هو حينا آخر فيقول :

شاعر المجد خدنه شاعر اللفظ
كلانا رب المعاني الدقاق

وتعظيم المتنبي لنفسه لا ينبغي ان يفسر على انه جنون او اغراق في الغرور ، انما هو حقيقته تعظيم للانسان ولقدرة الانسان . وهو حين ياخذه الغلو في مدح نفسه انما يغالي في الوقت نفسه في الحط من هيبة السلطان . وتهوين شانه والاستخفاف بحاشيته واعوانه .

وحين كان الشعراء يدعون الى تقديس السلطان ، كان المتنبي يذهب الى ان السيادة حق للناس جميعا وهو القائل : « لولا المشقة ساد الناس كلهم » ويغرق المتنبي في شخص ممدوحه : صفة الانسان وصفة السلطان ، فيشيد به انسانا وينكر عليه سلطانا ، وهذا هو معنى قوله في سيفالدولة :

وان الذي سمى عليا لمنصف
وان الذي سماه سيفا لظالمه
وما كل سيف يقطع الهام حده
وتقطع لزبات الزمان مكارمه

ولقد التزم المتنبي بهذا الموقف وثبت عليه طول حياته وكان ينطلق فيه من ثقته المطلقة بنفسه وايمانه بانه هو المتفضل بشعره على السلطان ، وبانه ليس للسلطان غنى عن هذا الفضل . وقد عبر عن ذلك بشيء من الالتواء :

اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا
ان لا تفارقهم فالراحلون هم

وعبر عنه تعبيرا لا مواربة فيه وهو يهجو كافورا :

جوعان ياكل من زادي ويمسكني
لكي يقال عظيم القدر مقصود

وذهب الشراح مذاهب بعيدة في شرح معنى الشطر الاول من هذا البيت ـ قال الواحدي : « وصفه بالجوع على معنى انه للؤمه وبخله لا يشبع من الطعام » (١٧) .

ويقول عبدالرحمن البرقوقي في شرحه : « وصفه بالجوع على معنى انه للؤمه وشحه لا تسخو نفسه بشيء ولا يبغي حجره. وقوله : ياكل من زادي ، قال الواحدي : لهذا وجهان : احدهما ان المتنبي آتاه بهدايا والطاف ولم يكافئه عنها، والآخر: ان المتنبي كان ياكل من خاص ماله عنده وينفق على نفسه مما حمله وهو يمنعه من الارتحال ، فكانه ياكل زاده حين لم يبعث اليه شيئا ومنعه من الطلب ، وقال قوم : كان الاسود قد جمع له شيئا من غلمانه وخدمه ثم اخذه ولم يعطه شيئا » (١٨) .

وغفر الله لهؤلاء الشراح الذين مسخوا معنى هذا البيت فان (زاد) المتنبي هنا هو شعره ، وهذا امر واضح لا يحتاج الى شرح !

ـ ٢ ـ

يثار هنا تساؤل : هل كان شاعرنا الثائر المتصدي للسلطان « منتميا » ؟ هل كان المتنبي « قرمطيا » او داعية من دعاة القرامطة كما قيل عنه ؟

الحق ان الباحث الموضوعي لا يستطيع ان يقطع برأي في هذا ما لم تتوفر له اسانيد وادلة يمكنالثقة بها والاطمئناناليها. وليس بين ايدينا في الوقت الحاضر ـ فيما اعرف ـ ما يدل على ان المتنبي كان « قرمطيا » .

ومع ذلك فان الاتجاه الباطني واضح في اغلب قصائده . ففي القصيدة التي يمدح بها علي بن احمد بن عامر الانطاكي والتي مطلعها :

اطاعن خيلا من فوارسها الدهر
وحيدا وما قولي كذا ومعي الصبر

يستوقفنا قوله :

وأشجع مني كل يوم سلامتي
وما ثبتت الا وفي نفسها امر

ويقول الواحدي في تفسيره :

« يقول : سلامتي في بقائها معي في هذه المطاعنة اشجع مني وهذا مجاز والمعنى اني أسلم من هذه الحوادث فلا تصيب بدني ولا مهجتي بضرب . ثم قال : وما بقيت سلامتي معي الا لامر عظيم يظهر على يدي » (١٩)

ثم يمضي قائلا :

ذر النفس تاخذ وسعها قبل بينها
فمفترق جاران دارهما العمر
ولا تحسبن المجد زقا وقينة
فما المجد الا السيف والفتكة البكر

---

(١٧) شرح ديوان المتنبي ـ الواحدي ـ ص٦٩٤ ـ طبع برلين سنة ١٨٩١ .

(١٨) شرح ديوان المتنبي ـ عبدالرحمن البرقوقي ـ ج٢ . ص١٤ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت .

وتضريب أعنـــاق الملوك وان ترى
لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركـــك في الدنيـا دويـا كانمـا
تداول سـمع المرء انمـله العشـر

ثم يقول :

عليّ لاهل الجـــور كـل طمـــرة
عليها غـلام ملء حيزومـــه غمـــر
يدير باطراف الـرماح عليهـــم
كؤوس المنايا حيث لا تشتهى الخمر

وقيل في شرح « عليّ لاهل الجور ... »

« يقول يحق عليّ ان اسوق الى اهل الظلم عسكرا لجبا فيه كل فرس نشيط يحمل فارسا قد امتلأ صدره حقدا عليهم وغيظا وحنقا فلا تاخذه بهم رافة . » (٢٠)

و (أهل الجور) هم ابدا كل همّ المتنبي ، يريد هنـا أن يدير عليهم كؤوس المنايا ، وهم (الناس) الذين يريد ان يروي رمحه بدمائهم حين يقول :

ومن عرف الايـــام معرفتي بهـــا
وبالناس روى رمحه غـير راحـــم

وهم (الناس الصغار) ولكنهم اصحاب السلطان :

ودهـــر ناسـه نـــاس صـــغار
وان كـــانت لهـــم جثث ضخـام
وما انا منهـم بالعيـــش فيهـــم
ولكن معدن الذهـب الرغـــام
ارانـــب غـــير انهـــم ملـــوك
مفتحـــة عيونهـــم نيـــام

واهل الجور هم هؤلاء (الناس البعران) الذين يقـول فيهـــم :

لو استطعت ركبت النـاس كلهـــم
الى ســـعيد بن عبـدالله بعرانا !

وقال الصاحب بن عباد ينقد المتنبي : اراد ان يزيد على الشعراء في ذكر المطايا فاتى باخزى الخزايا » (٢١)

ولكن الصاحب كان حاقدا على المتنبي فتمسك بظاهراللفظ وتغافل عن حقيقة معناه .

واهل الجور هم (أهيل الزمان) في القصيدة التي يمدح بها علي بن محمد بن سيار بن مكرم التميمي ومطلعها :

اقل فعالي بله اكثـره مجـــد
وذا الجد فيـه نلت ام لم انل جد

ويقول فيها :

اذم الى هذا الزمـــان اهيلـــه
فاعلمهـــم قـــدم واحزمهم وغـــد
واكرمهـــم كـلب وابصـــرهم عم
واســـعدهم فهـد واشجعهم قـرد
ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى
عدوا له ما من صداقتـــه بـــد

يقول الدكتور طه حسين :

« واقرا هذه الابيات التي تصور سخطه على الناس بل غاوه في هذا السخط والتي هي من اجمل شعر المتنبي لالوان التشاؤم التي ستنبث فيما سـيقول من الشـعر الـى ان يموت » (٢٢) .

والحق ان المتنبي يصور في هذه الابيات سخطه على الناس ولكن من هم هؤلاء الناس ؟ انهم بلا مراء اولئكالطفاة من اصحاب السلطان واعوانهم . وهذا هو نهج المتنبي في كل شعره . والمتنبي هنا غير متشائم بل هو الى التفاؤل اقرب ، لانه ثائر والتشاؤم بعيد عن طبيعة الثوار .

ويستوقفنا من هذه القصيدة هذا البيت الذي اثار جدلا بين الشراح :

بنفسي الذي لا يزدهى بخديعـــة
وان كثـرت فيها الذرائع والقصـد

فابن جني يرى في هذا البيت هجوا . ذكر الواحدي في شرحه ما يلي : « قال ابن جني : كانه قال بنفسي غيرك ايها الممدوح لانني ازدهيك بالخديعة واسخر منك بهذا القول ... وهذا مذهبه في اكثر شعره لانه يطوي المدح على هجاء حذقـا منه بصنعة الشعر وتداهيا كما كان يقول في كافور من ابيـات ظاهرها مدح وباطنها هجاء » (٢٣) .

ولقد رد ابن فورجه على ابن جني وذكر لنا الواحدي هذا الرد في شرحه : « قال ابن فورجه انما فعل ابو الطيب ذلك في مدائح كافور استهزاء به لانه كان عبدا اسود لم يكن يفهم ما ينشده ، واما علي بن محمد بن سيار بن مكرم الذي يمدحه بهذه القصيدة فمن صميم بني تميم عربي لم يزل يمدح وينتابه الشعراء ، لا يبعد من فهم وليس في هذا البيت ما يدل على انه يعني به غيره بل يعنيه به . » (٢٤)

وفي ظني ان راي ابن جني في معنى هذا البيت هو الارجح، لانه كان صديق المتنبي وقد لازمه وقرا الديوان عليه فهو اعرف بنواياه واكثر فهما له من سواه .

ولكافور عند المتنبي نصيب واف من الهجاء على طريقته في الاطراء وهو القائل فيه :

وقـد أرى الخنزير اني مدحتـــه
ولو علموا أن كان يهجى بما يطرى

(١٩) شرح ديوان المتنبي ـ الواحدي ـ ص٣٨٣ .
(٢٠) شرح ديوان المتنبي ـ البرقوقي ـ ج٢ ص٢٥٦
(٢١) يتيمة الدهر ـ الثعالبي ـ ج١ ص١٢٩ .

(٢٢) مع المتنبي ـ طه حسين ـ ص١٤٧ .
(٢٣) شرح ديوان المتنبي ـ الواحدي ـ ص٣٠٠-٣٠١ .
(٢٤) المصدر السابق . ص٣٠١ .

يقول (الثعالبي) في (يتيمة الدهر) : « ان لابي الطيب ابتداءات مستبشعة كقوله في استفتاح قصيدة في مدح ملك يريد ان يلقاه بها اول لقية :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا
وحسب المنايا ان يكن امانيا

وفي الابتداء بذكر الداء والموت والمنايا ما فيه من الطيرة التي تنفر منها السوقة فضلا عن الملوك » (٢٥) .

وفي هذا البيت والذي بعده وهو :

تمنيتها لما تمنيت ان ترى
صديقا فاعيا او عدوا مداجيا

يقول الاستاذ محمود محمد شاكر « واستقبال كافور بهذين البيتين هجاء دونه كل هجاء ، فيه القذاع وفحش وسخرية وتهكم » (٢٦) .

وقال ابن جني : لما قرات على ابي الطيب قوله في كافور :

وما طربي لما رايتك بدعة
لقد كنت ارجو ان اراك فاطربُ

فقلت له لم تزد على ان جعلته ابازنه (وهي كنية القرد) فضحك ابو الطيب ، فانه بالذم اشبه منه بالمدح » (٢٧)

ويقول ابن جني انه كان يقرأ على المتنبي قصيدته في كافور التي يقول فيها :

يدل بمعنى واحد كل فاخر
وقد جمع الرحمن فيك المعانيا

ثم يعقب قائلا : « لما وصلت الى هذا البيت ضحكت وضحك وعرف غرضي . (وهو انه اراد به الهجاء) » (٢٨) .

وقد عرّض المتنبي بكافور حين قال :

فدىً لابي المسك الكرام فانها
سوابق خيل يهتدين بادهم
اغرّ بمجد قد شخصن وراءه
الى خلق رحب وخلق مطهم

وقالوا : « ومن رام معرفة مراد ابي الطيب في هذين البيتين فعليه بقول ابن الرومي وهو :

هم الغرة البيضاء من آل مصعب
وهم بقعة التحجيل والناس ادهم (٢٩)

وفي قصيدته التي قالها في كافور :

انما التهنئات للاكفاء
ولمن يدّني من البعداء
وانا منك لا يهنيء عضو
بالمسرات سائر الاعضاء

قال الواحدي في معني البيتين : انما يهنيء الرجل نظراؤه والذين يتقربون اليه من الاجانب ، اما انا وانت فانسان واحد، واذا المّ بانسان فرح وعراه سرور اشتركت في ذلك جميع اعضائه فلم يهنيء بعضها بعضها (٣٠) . وكان الواحدي قد ضاق ذرعا بالمتنبي فقال : « وهذا طريق المتنبي يدعي لنفسه المساهمة والكفاءة مع الممدوحين في كثير من المواضع وليس ذلك للشاعر فلا ادري لم احتمل ذلك منه » (٣١) !

وقد بلغ المتنبي غاية السخرية من كافور في هذه القصيدة حين قال :

تفضح الشمس كلما ذرت الشمـ (م)
ـس بشمس منيرة سوداء
انما الجلد ملبس وابيضا
في النفس خير من ابيضاض البقاء
من لبيض الملوك ان تبدل اللو
ن بلون الاستاذ والسحناء

قال وزير كافور (ابن حنزابه) : « انه هزيء بكافور في هذه الابيات » (٣٢) وقال (الوحيد) وهو احد شراح ديوانه : « كان المتنبي يعلم ان ذكر السواد على مسامع كافور من الموت ، فاذا ذكر لونه بعد ذلك فقد اساء الى نفسه وعرضها للقتل والحرمان ... ولكن الرجل كان سيء الراي وسوء رايه اخرجه من حضرة سيف‌الدولة ... » (٣٣)

وموقف المتنبي من سيف‌الدولة هو نفس موقفه من اصحاب السلطان جميعا . واول ما انشده القصيدة التي مطلعها :

وفاؤكما كالربع اشجاه طاسمه
بان تسعدا والدمع اشفاه ساجمه

وقد اثار هذا البيت اللغز نقاشا طويلا بين الشراح والنقاد، وعندي ان المتنبي ، وقد تهيا لهذه القصيدة طويلا قد تعمد هذا الالتواء في مطلعها ، وهو اسلوب من اساليبه في التعمية والتمويه، ليصرف الاذهان بهذا التعقيد ، ولو الى حين ، عن التفكير في المعنى الذي اخفاه في البيتين اللذين قالهما بعد المطلع مباشرة وهما :

وما انا الا عاشق كل عاشق
اعق خليليه الصفيين لائمه

---

(٢٥) يتيمة الدهر ـ الثعالبي ـ ج١ ص١٢٣ .
(٢٦) المقتطف ـ ج١ ص١٤٦ المجلد الثامن والثمانون ـ سنة ١٩٣٦ .
(٢٧) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ـ البديعي ـ ص١١٧ ـ دار المعارف بمصر .
(٢٨) شرح ديوان المتنبي ـ البرقوقي ـ ج٤ ص٤٢٦ .
(٢٩) الصبح المنبي ـ ص١٢٠ .
(٣٠) شرح ديوان المتنبي ـ البرقوقي ـ ج١ ص١٥٦
(٣١) شرح ديوان المتنبي ـ الواحدي ـ ص٦٢١ .
(٣٢) الصبح المنبي ـ ص١١٥ .
(٣٣) المصدر السابق ـ ص ١١٥-١١٦ .
(٣٤) هو عبدالواحد بن نصر المخزومي ، كان من كتاب سيف‌الدولة وشعرائه .

وقد يتربا بالهوى غير اهله
ويستصحب الانسان من لا يلائمه

في هذين البيتين يعرض المتنبي بسيف الدولة ويحدد موقفه منه بكل صدق وصراحة ، وكانه اراد ان يقول له :

جئتك وانا عاشق مشدود الى معشوقه ، ولكنك لست هذا المعشوق ايها الامير ! فما انت علي شاكلتي ، وشتان ما بيننا . انت لست مني ، وانا لست منك ، ايها الامير ! ولكنني اتكلف حجتك ، واليس لك لبوس الهوى !

قال ابو الفرج الببغاء : « كان ابو الطيب يشكو من سيف‌الدولة ، وكان سيف‌الدولة يفتاظ من تعاظمه ويجفو عليه اذا كلمه والمتنبي يجيبه في اكثر الاوقات ويتغاضى في بعضها » (٣٥) .

وقال لنا الرواة انه حين انشد سيف‌الدولة قصيدته التي مطلعها :

واحر قلباه ممن قلبه شبم
ومن بجسمي وحالي عنده سقم

همّ جماعة بقتله لشدة ادلاله فيها واعراض سيف‌الدولة عنه .

وقد عرّض بسيف‌الدولة حين قال :

يا أعدل الناس الا في معاملتي
فيك الخصام وانت الخصم والحكم

وعرّض بابي فراس حين قال :

اعيذها نظرات منك صادقة
ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

فيغلظ ابو فراس له بالقول : ومن انت يادعيّ كندة حتى تاخذ اعراض اهل الامير في مجلسه ؟

ولكن المتنبي لا يعبأ بهذا القول بل يمضي في انشاده مدلا بنفسه مفاخرا بها معجبا بها كل الاعجاب :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا
باني خير من تسعى به قدم
انا الذي نظر الاعمى الى ادبي
واسمعت كلماتي من به صمم
والخيل والليل والبيداء تعرفني
والحرب والضرب والقرطاس والقلم

فيقاطعه ابو فراس قائلا : وما ابقيت للامير وانت تاخذ جوائز الامير ؟

هنالك يستشيط الامير غضبا فيقذف‌المتنبي بالدواة‌التي بين يديه...ثم يعود فيرضى عنه‌في الحال ويقربه اليه‌ويقبل‌راسه ويجزل له في العطاء وقد بهره قوله :

ان كان سركم ما قال حاسدنا
فما لجرح اذا ارضاكم الم (٣٦)

(٣٥) الصبح المنبي – ص٩٢ .
(٣٦) الصبح المنبي – ص ٨٨–٩١ .

قد تكون هذه القصة كما نقلها الرواة الينا بهذا الشكل موضوعة وبعيدة عن التصديق ، غير ان قصيدة المتنبي هذه حقيقة قائمة لا يمكن لاي احد ان ينكرها ، وهي شاهدة له على اصالة نوريته وعلى ثبات موقفه من السلطان .

وفي هذه القصيدة يقول « الثعالبي » :

« وهي على براعتها واستقلال اكثر ابياتها بانفسها تكاد تدخل في باب اساءة الادب بالادب » (٣٧) .

ولقد روى لنا صاحب كتاب « الصبح المنبي عن حيثية المتنبي » ان المتنبي حين انشد ابن العميد قصيدته التي يقول فيها :

بادٍ هواك صبرت أم لم تصبرا
وبكاك ان لم يجر دمعك او جرى
كم غر صبرك وابتسامك صاحبا
لما رآك وفي الحشى ما لا يرى

قال له ابن العميد :

« يابا الطيب ، تقول باد هواك ثم تقول بعده كم غرّ صبرك ؟ ما اسرع ما نقضت ما ابتدات به ! فقال : تلك حال وهذه حال » (٣٨) .

وقد فسر بعض الشراح قول المتنبي « تلك حال وهذه حال » بان مراده ان الحال التي يذكرها في البيت الثاني سابقة على الحال المذكورة في البيت الاول(٣٩) .

وما اغرب هذا التفسير !

ويرى الاستاذ محمود محمد شاكر ان الذي اوقع المتنبي في هذا التناقض هو حبه لخولة اخت سيف‌الدولة فقال : « وهذه حالة من احوال الحب الطاغي المسيطر ذي السلطان والغلبة وظهورها في شعر ابي الطيب في بيتين متعاقبين ينقض معنى احدهما معنى الآخر كما قال ابن العميد دليل على ان الرجل كان اخيذاً في اسر الهوى لا يملك نفسه ولا يجد في‌تناقض معاني البيتين شيئا .. » (٤٠) .

وما ابعد هذا المعنى عن قصد المتنبي !

وعندي ان المتنبي كان يقصد الى التعريض بابن العميد ، ولقد ادرك ابن العميد هذا القصد فاراد ان يفيضه بقوله : ما اسرع ما نقضت ما ابتدات به !

ولكن ما هو معنى البيتين ؟

في البيت الاول يقول : ان هواي باد عليّ سواء اظهرته ام تكلفت كتمانه ، وهذا الهوى ليس لك ايها الوزير ! كانه يريد ان يتحداه قائلا : ان ولائي ليس لك !

اما في البيت الثاني فيقول : ان ظاهر موقفي منك لا يدل على ما اضمره لك ، فلا يغرّنك ما تراه مني ! واني لك ان تدرك ما اخفيه وفي الحشى ما لا يُرى !

(٣٧) يتيمة الدهر ج١ ص١٦٤ .
(٣٨) الصبح المنبي – ص١٤٧–١٤٨ .
(٣٩) شرح ديوان المتنبي – البرقوقي – ج٢ ص٢٦٥ .
(٤٠) المقتطف – لسنة ١٩٣٦ – ج١ ص١٥٨ .

وهذا هو نهج المتنبي في كل مواقفه من السلطان ، ولقد اخذ الدكتور طه حسين على الشاعر تقصيره في مدح ابن العميد فقال : « الانصاف يقتضينا ان نقول ان المتنبي اخذ من ابن العميد اكثر مما اعطاه فقد قصر الشاعر من غير شك عن مدح هذا الرجل الذي كان بعقله وادبه وسياسته وكرمه زينة لمعاصريه » (٤١)

اما موقف المتنبي من عضدالدولة فقد عرض له الاستاذ محمود محمد شاكر في دراسته القيمة عن المتنبي حين حلل أجمل تحليل قصيدته التي يقول فيها :

مغاني الشعب طيباً في المغاني
بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها
غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها
سليمان لسار بترجمان

فقال فيها « هذا هجاء بيّن لارض فارس واهلها ، فقد زعم ان سليمان عليه السلام ـ الذي علّم منطق الجن والطير والحشرات والبهائم ـ لو دخل ارضهم لاحتاج الى ترجمان ، فاخرجهم بذلك من منزلة من ذكرنا وجعلهم دونهم ، وانه من هوانهم على الله وقلتهم في الارض ـ لم يعلم الله سليمان لسانهم ، وليس يخفى هذا على عضد الدولة » .

ثم مضى قائلا : « ولم يكتف ابو الطيب بذلك بل اتبع هذا قوله :

اذا غنى الحمام الورق فيها
اجابته اغاني القيان
ومن بالشعب أحوج من حمام
ـ اذا غنى ونـاح ـ الى البيان

فتمم المعنى وابان مقصده من الابيات الاولى اذ جعلهم اقل منزلة من الطير في البيان والافصاح . ولم يكتف بهذا بل اراد ان يعلم عضد الدولة ان هذه البلاد ليست مكانه الذي يرتاح اليه وليست بالارض التي تحرص عليه ويحرص عليها وانه غريب عنهم وان مدحه لهم ليس شيئا وانه عربي وليس باعجمي يميل اليهم او يكون له شان بينهم » (٤٢) .

* * *

ولعل اطرف بيت قاله المتنبي والصاه وقعا على قلب الممدوح هذا البيت من قطعة قالها ارتجالا حين دخل على علي بن ابراهيم التنوخي فعرض عليه كاسا من الخمر :

اغار من الزجاجة وهي تجري
على شفة الامير ابي الحسين

قال الواحدي : « واساء ابو الطيب لان الامراء لا يغار على شفاههم » (٤٣) .

وقال الثعالبي : « وهذه الغيرة انما تكون بين المحب ومحبوبه » (٤٤) .

وعندي ان المتنبي كان يقصد بهذا البيت الى السخرية من الامير والتهكم عليه ولعله اراد ان يفضحه ويهتك ستره ، وكأني بالامير ابي الحسين وقد صحا من سكره ووعى ما قاله المتنبي فيه وأدرك اي حرج اصابه قال لمن حوله غاضبا :

لقد فضحنا !

ثمة قصائد ثلاث في ديوان المتنبي استرعت انتباهي فوقفت عندها طويلا . هذه القصائد قالها المتنبي وهو يمدح اصحاب السلطان في مناسبات ثلاث كان النصر حليفهم فيها ضد اعدائهم من القرامطة .

وسنرى عند تحليل هذه القصائد ان المتنبي كان يشيد فيها بهؤلاء الخارجين على السلطان ويتعاطف معهم وينكسر على السلطان موقفه منهم !

اما القصيدة الاولى فقد قالها في سيفالدولة بعد ان اخمد ثورة المبرقع واصحابه سنة ٣٣٧هـ .

يقول الثعالبي : « ظهر رجل في الغرب يعرف بالمبرقع يدعو الناس الى نفسه والتفت عليه القبائل وافتتح مدائن من اطراف الشام واسر ابا وائل تغلب بن داود بن حمدان وهو خليفة سيفالدولة على حمص والزمه شراء نفسه بعدد من الخيل وجملة من المال ، فاسرى سيفالدولة من حلب يفد السير حتى لحقه في اليوم الثالث بنواحي دمشق فاوقع به وقتله ووضع السيف في اصحابه فلم ينج الا من سبق فرسه ، وعاد سيفالدولة الى حلب ومعه ابو وائل وبين يديه راس الخارجي على رمح » (٤٥) .

ويقف ابو فراس الحمداني بين يدي سيفالدولة فينشده قصيدته التي يقول فيها :

وآب وراس القرمطي امامه
له جسد من اكعب الرمح ضامر

وقالوا : « وهذا من احسن ما قيل في الراس المصلوب على الرمح » (٤٦) .

وكان لابد للمتنبي من ان ينشد في هذا الموقف فماذا قال ؟

بدا قصيدته بهذا المطلع :

إلامَ طماعية العاذل
ولا راي في الحب للعاقل

ثم مضى فيها متعاطفا مع هؤلاء الخارجين على السلطان ، يظهر لهم كل حبه ووفائه واخلاصه في هذين البيتين :

يراد من القلب نسيانكم
وتابى الطباع على الناقل
واني لاعشق من عشقكم
نحولي وكل اموري ناحل

(٤١) مع المتنبي ـ طه حسين ـ ص٣٦٥ .
(٤٢) المقتطف ـ لسنة ١٩٣٦ ـ ج١ ص١٦١ .
(٤٣) شرح ديوان المتنبي ـ الواحدي ص ١٣٦ .
(٤٤) يتيمة الدهر ـ ج١ ص١٤٤ .
(٤٥) المصدر السابق ـ ج١ ص١٨-١٩ .
(٤٦) المصدر السابق ـ ج١ ص١٩ .

ثم يأخذ في رثائهم فيتفجع لهم ويبكيهم اصدق البكاء فيقول :

ولو زلتم ثم لم ابككم
بكيت على حبي الزائل
أينكر خدي دموعي وقد
جرت منه في مسلك سابل
اأول دمع جرى فوقه
وأول حزن على راحل
وهبت السلو لمن لامني
وبت من الشوق في شاغل

ثم يعرّض بسيف الدولة فيصفه بالقاتل ، ويحرض من طرف خفي على الثار منه حين يقول :

فان الحسام الخضيب الذي
قتلتم به في يد القاتل

ثم ينهي قصيدته وهو ساخط ناقم ، مكتئب النفس ضيق الصدر فيقول :

فذي الدار اخون من مومس
واخدع من كفة الحابل
تغانى الرجال على حبها
وما يحصلون على طائل

وفي هذا البيت الاخير تعريض اي تعريض بسيف الدولة ، كانه اراد ان يقول له : ان حرصك على هذا السلطان الزائل هو الذي دعاك الى الفتك بهؤلاء الثوار ، فيالك من خائب خاسر !.

* * *

اما القصيدة الثانية فهي تلك التي قالها في كافور سنة ٣٤٨هـ حين خرج عليه شبيب العقيلي القرمطي فتمكن كافور منه وقضى عليه .

يبدأ المتنبي قصيدته بهذا المدح المبطن بالهجاء لكافور فيقول :

عدوك مذموم بكل لسان
ولو كان من اعدائك القمران
ولله سر في علاك وانما
كلام العدا ضرب من الهذيان

في معنى البيت الاول يقول ابن جني : « هذا المدح بنمكس هجاء . يقول : انت رذل ساقط والساقط لا يضاهيه الا مثله ، واذا كان معاديك مثلك فهو مذموم بكل لسان كما انك كذلك ولو عاداك القمران » (٤٧) .

ويقول الواحدي في معنى البيت الثاني :

« وهذا الى الهجاء اقرب لانه نسب علوه على الناس الى قدر جرى به من غير استحقاق ، والقدر قد يوافق بعض الناس فيعلو ويرتفع على الاقران وان كان ساقطا باتفاق من القضاء»(٤٨)

ثم يمضي المتنبي في قصيدته فياخذ في تمجيد شبيب العقيلي قائلا :

فان يك (انسانا) مضى لسبيله
فان المنايا غاية الحيوان

وكلمة (الانسان) من صفات التشريف عند المتنبي وهو القائل :

قد شرف الله ارضا انت ساكنها
وشرّف الناس اذ سواك (انسانا)

ثم يستمر المتنبي في الاشادة بشبيب وتكريمه والتعريض بعدوه كافور قائلا :

وما كان الا النار في كل موضع
تثير غبارا في مكان دخان
فنال حياة يشتهيها عدوه
وموتا يشهي الموت كل جبان

ثم يقول في شبيب مخاطبا كافورا :

وقد قتل الاقران حتى قتلته
باضعف قرن في اذل مكان

قال ابن جني : « لما انشد ابو الطيب هذا البيت بحضرة كافور قال كافور : لا والله بل باشد قرن في اعز مكان ! » (٤٩) .

ويمضي المتنبي في قصيدته على هذا النهج ، ثم يختتمها بهذا البيت :

لو الفلك الدوار ابغضت سعيه
لعوّقه شيء عن السدوران

وهو يسخر هنا من كافور ويستخف به ويتهكم عليه حين يرد انتصاراته لا الى حنكته وكفاءته وقوة باسه ، ولا الى ضعف عدوه وتخاذله وقلة حيلته ، بل الى قدر مقدر وقضاء مدبر لا سلطان لاحد على دفعه !

اما القصيدة الثالثة فهي التي قالها في ابي الفوارس دلير بن لشكروز سنة ٣٥٣هـ وكان قد جاء الى الكوفة لقتال القرامطة من بني كلاب ولكن هؤلاء كانوا قد انصرفوا عنها قبل وصول دلير اليها .

ويبدأ القصيدة قائلا :

كدعواك كل يدعي صحة العقل
ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل
لهنك اولى لائم بملامة
واحوج ممن تعذلين الى العذل

(٤٧) شرح ديوان المتنبي ـ البرقوقي ـ ج٤ . ص٢٧٣ .

(٤٨) شرح ديوان المتنبي ـ الواحدي ـ ص٦٧٢ .

(٤٩) شرح ديوان المتنبي ـ البرقوقي ـ ج٤ ص٢٧٥ .

يقول الواحدي في شرح البيت الاول :

« يقول للعاذلة : كل واحد يدعي صحة عقله كدعواك ، يعني انك بلومك اياي تدعين انك اصح عقلا مني وليس يعلم احد جهل نفسه لانه لو علم جهل نفسه لم يكن جاهلا » (٥٠) .

وفي معنى البيت الثاني يقول الواحدي :

« يقول (للعاذلة) : انت اولى باللامة وانت احوج الى العذل مني لان من اجبته لا يلام على حبه » (٥١) .

ترى اية اشارة يخفيها المتنبي في هذين البيتين ؟

اغلب الظن ان (العاذلة) هنا اشارة الى ابي الفوارس دلير نفسه وكاني بالمتنبي يريد ان يقول لابي الفوارس :

انت تزعم انك على حق في موقفك من بني كلاب ، وانهم على باطل ، يالك من جاهل لا يدري بما هو فيه من جهل ، فظاهر باطلك !

ثم يمضي في قصيدته قائلا :

ذريني انل ما لا ينال من العلى
فصعب العلى في الصعب والسهل في السهل
تريدين لقيان المعالي رخيصة
ولا بد دون الشهد من ابر النحل

في هذا الاخير يتعاطف المتنبي مع الخارجين على السلطان ويواسيهم ويتألم لهم ويدعوهم الى الصبر واحتمال الشدائد فلابد دون الشهد من ابر النحل !

ومما يستلفت النظر في هذا البيت كلمة (لقيان) فهي هنا رموز المتنبي يمثل تجاوبه مع الثوار . وتظهر لنا دلالة هذا الرمز بوضوح حين نقرأ ما نقله الرواة ان المتنبي قد احتج في شرح بيته هذا ، بقول ابي القاسم الخارجي الذي خرج بالشام ايام المكتفي بالله العباسي وهو :

احب لقيان عدو ربي
والموت فيه راحة المحب (٥٢)

ثم يمضي في القصيدة قائلا :

فلا عدمت ارض العراقين فتنة
دعتك اليها كاشف الخوف والمحل

في الشطر الاول يحرض المتنبي على الثورة ويدعو اليها في العراقين الكوفة والبصرة ، اما الشطر الثاني فما هو الا تعمية للمعنى الذي اراده في الشطر الاول .

ثم يسخر المتنبي من ابي الفوارس دلير بالغ الخربة ويتهكم عليه بهذا البيت :

فان تك من بعد القتال اتيتنا
فقد هزم الاعداء ذكرك من قبل

وما دام دلير قد جاء بعد انتهاء القتال فالويل له من لسان المتنبي . قال يهزأ به : « شفى كل شاك سيفه » وقال ساخرا منه : « شجاع كان الحرب عاشقه له » ونال منه وشفى غليله بهذا البيت :

وما دام دلير يهز حسامه
فلا ناب في الدنيا لليث ولا شبل

ويختم قصيدته بهذا البيت الذي يعرض فيه بدلير ويشير الى اصله الاعجمي :

فلا قطع الرحمن اصلا اتى به
فاني رايت الطيّب الطيّب الاصل !

- ٤ -

ليس من مهمتي هنا ان ابحث في عقيدة المتنبي ولو اردت ذلك لانتهى بي البحث الى طريق مسدود ، ذلك لان اقوال الشعراء لا تنهض دليلا على عقائدهم ، والله تعالى يقول فيهم :

« الم تر انهم في كل وادٍ يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون » .

غير ان المتنبي قد اثار عليه حفيظة النقاد حين تعرض في بعض شعره لما يمس العقيدة الاسلامية .

يقول (الثعالبي) في (يتيمة الدهر) وهو يعرض بعض ابيات للمتنبي تكشف عن ضعف العقيدة ورقة الدين : « ان الديانة ليست عيارا على الشعراء ولا سوء الاعتقاد سببا لتاخر الشاعر ولكن للاسلام حقه من الاجلال الذي لا يسوغ الاخلال به قولا وفعلا ونظما ونثرا ، ومن استهان بامره ولم يضع ذكره وذكر ما يتعلق به في موضع استحقاقه فقد باء بغضب من الله تعالى وتعرض لمقته في وقته » ثم يمضي قائلا :

« وكثيرا ما قرع المتنبي هذا الباب بمثل قوله :

يترشفن من فمي رشفات
هن فيه احلى من التوحيد » (٥٣)

ولقد اثار هذا البيت جدلا بين الشراح فمنهم من قال : هذا افراط وتجاوز حد . ومنهم من قال : ان المتنبي انما انشده هكذا : « هن فيه حلاوة التوحيد » . ورأى بعضهم ان التوحيد نوع من تمر العراق . (٥٤)

ويقول المتنبي :

تمتع من سهاد او رقاد
ولا تأمل كرىً تحت الرجام
فان لثالث الحالين معنىً
سوى معنى انتباهك والمنام

ويعلق ابن جني على هذين البيتين قائلا : « ارجو الا يكون اراد بذلك ان نومة القبر لا انتباه لها » (٥٥) .

(٥٠) شرح ديوان المتنبي ـ الواحدي ـ ص٧٣٦ .
(٥١) المصدر السابق .
(٥٢) ديوان ابي الطيب المتنبي ـ الدكتور عبدالوهاب عزام ـ القاهرة ١٩٤٤ (ص ١ من المقدمة)
(٥٣) يتيمة الدهر ـ الثعالبي ـ ج١ ص١٤٢ .
(٥٤) شرح ديوان المتنبي ـ البرقوقي ـ ج٢ ص٤٠ .
(٥٥) الصبح المنبي ـ ص ٢٨٧ .

ويقول المتنبي :

لو كان ذو القرنين اعمل رأيه
لما اتى الظلمات صرن شموسا
او كان صادف رأس عازر سيفه
في يوم معركة لاعيا عيسى
او كان لج البحر مثل يمينه
ما انشق حتى جاز فيه موسى

ولقد عابه على هذه الابيات بعض النقاد القدامى فقال (الثعالبي) : « وكان المعاني اعيته حتى التجأ الى استصغار امور الانبياء » (٥٦) .

وقال الصاحب بن عباد وهو يعلق على بيت المتنبي :

لعظمت حتى لو تكون امانة
ما كان مؤتمنا بها جبرين

« وقلب هذه اللام الى النون ابغض من وجه المنون ، ولا احسب جبريل عليه السلام يرضى منه بهذا المجون ، هذا على ما في معنى البيت من الفساد والقبح » (٥٧) .

ترى ما الذي دعا المتنبي الى ان يقرع هذا الباب ؟ هل اعيته المعاني حقا ؟ وكيف تعييه وهو كما قال عن نفسه رب المعاني الدقاق .

وعندي ان المتنبي لم يقصد هنا الى المبالغة في المدح ، ولم يرد اضفاء صفات الانبياء على الممدوح ، وانما اتخذ ذلك رمزا باطنيا .

يقول الامام الغزالي : « اما الباطنية فانما لقبوا بها لدعواهم ان لظواهر القرآن والاخبار بواطن تجري في الظواهر مجرى اللب من القشر » (٥٨) .

ويقول الديلمي عن الباطنية : « واما في النبوات فقولهم قريب من قول الفلاسفة وينكرون الوحي ومجيء الملائكة والمعجزات ويقولون كلها رموز واشارات وامثال وممثلات لم يعلمها اهل الظاهر »(٥٩) .

ويظهر اثر الباطنية واضحا في القصيدة التي قالها المتنبي في صباه ومطلعها :

ضيف ألم برأسي غير محتشم
والسيف احسن فعلا منه باللمم

ومنها هذه الابيات :

لقد تصبرت حتى لات مصطبر
فالآن اقحم حتى لات مقتحم

بكل منصلت ما زال منتظري
حتى ادلت له من دولة الخدم
شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة
ويستحل دم الحجاج في الحرم

وفي معنى البيت الاخير يقول ابن القطاع : « كل من فسر الديوان قال : « الشيخ » هنا : واحد الشيوخ من الناس . يقول : انتصر على اعدائي بكل شيخ ماض في اموره ، لا يبالي بالعواقب ، مستحل للمحارم ، سافك للدماء ، وهذا بالهجاء اشبه ، وانما المعنى ان الشيخ هنا السيف ، فان الشيخ من اسمائه » (٦٠) .

وعندي ان « الشيخ » هنا ليس هو السيف وليس هو واحد الشيوخ وانما هو رمز للامام كما يراه الباطنية .

يقول الديلمي عنهم « واما في الامامة فاتفقوا على انه لابد في كل عصر من امام معصوم يرجع اليه في جميع العلوم ولا يلتفت الى العقول اصلا » (٦١) .

وقال عنهم الامام الغزالي : « واتفقوا على ان الامام يساوي النبي في العصمة والاطلاع على حقائق الحق في كل الامور الا انه لا ينزل اليه الوحي وانما يتلقى ذلك من النبي فانه خليفته وبازاء منزلته » (٦٢) .

ويقول الديلمي عن الباطنية :

« ويقولون للشرائع باطن لا يعرفه الا الامام ومن ينوب منا به » (٦٣) ويقول كذلك :

« واما الصلاة فقد ذكروا فيها تاويلات كثيرة تدل على ان فرضهم الالحاد وابطال الشرع الشريف .... واما الحج ففيه تاويل ايضا » (٦٤) .

* * *

وهناك بيت قاله المتنبي في مطلع قصيدة له يمدح بها علي ابن ابراهيم التنوخي ، قد عابه النقاد وانكروه واثار جدلا بين الشراح ، هذا البيت هو :

احاد ام سداس في احاد
لييلتنا المنوطة بالتناد

قال عنه الصاحب بن عباد انه « من عنوان قصائده التي تحير الافهام وتفوت الاوهام وتجمع من الحساب ما لا يدرك بالارتيماطيقي وبالاعداد الموضوعة للموسيقى » ويمضي الصاحب في قوله ساخرا : « وهذا كلام الحكل ورطانة الزط ، وما ظنك بممدوح قد تشعر للسماع من مادحه فصك سمعه بهذه الالفاظ المغفولة والمعاني المنبوذة ، فاي هزة تبقى هناك ؟ واي اريحية تثبت هنا ؟ » (٦٥)

---

(٥٦) يتيمة الدهر – ج١ ص١٤٣ .
(٥٧) الصبح المنبي – ص٣٦٥ .
(٥٨) فضائح الباطنية – ابو حامد الغزالي – ص١١ تحقيق عبدالرحمن بدوي – القاهرة سنة ١٩٦٤ .
(٥٩) « بيان مذهب الباطنية وبطلانه منقول من كتاب قواعد عقائد آل محمد » – الديلمي – ص٦ .
(٦٠) شرح ديوان المتنبي – البرقوقي – ج٤ ص١٥٩ .
(٦١) الديلمي – المصدر السابق – ص٦ .
(٦٢) فضائح الباطنية – الغزالي – ص٤٢ .
(٦٣) الديلمي – المصدر السابق – ص٨ .
(٦٤) الديلمي – ص ٤٥–٤٦ .
(٦٥) يتيمة الدهر – الثعالبي – ج١ ص١٢٤ .

وقال عنه الدكتور طه حسين : « واقرأ معي ياليته التي يمدح بها علي بن الحسين ولا تظل الوقوف عند مطلعها الفاضح البغيض الذي انكره القدماء ورأوا فيه الفازا وخطأ في الحساب وبعداً عن الشعر .

أحاد أم سداس في أحاد
ليلتنا المنوطة بالتنادي

لا تقف عند هذا البيت السخيف الذي تجد مثله كثيرا في اجمل شعر المتنبي وارقه ، بل تجاوزه الى ما قاله الشاعر بعد » (٦٦) .

وقال الواحدي في تفسيره : « وأكثروا في معنى هذا البيت ثم لم يأتوا ببيان مفيد موافق اللفظ ، وان حكيت ما قالوا فيه طال الكلام ولكني اذكر ما وافق اللفظ من المعنى وهو انه اراد واحدة ام ست في واحدة ، وست في واحدة اذا جعلتها فيها كالشيء في الظرف ولم ترد الضرب الحسابي ، سبع، وخص هذا العدد لانه اراد ليالي الاسبوع وجعلها اسما لليالي الدهر كلها لانه كل اسبوع بعد اسبوع اخر الى اخر الدهر . يقول : هذه الليلة واحدة ام ليالي الدهر كلها جمعت في هذه الواحدة حتى طالت وامتدت الى يوم القيامة » (٦٧)

ويرى (ماسينيون) أن العدد في هذا البيت يرمز الى (بنات نعش) وفسره بالبيت الذي يليه : (٦٨)

كأن بنات نعش في دجاها
خرائد سافرات في حداد

وعندي ان بيت المتنبي هذا الذي انكره النقاد ينطوي على رموز باطنية وهو يشير الى معتقد الباطنية في الامامة . ذلك ان كلمة « ليلتنا » في الشطر الثاني من البيت لا تعني : هذه الليلة ، كما قالوا ، انما الليل يعني عند الباطنية السر والكتمان . (٦٩)

معنى عجز البيت اذن هو (ان سرنا يبقى الى آخر الدهر) ما هو هذا السر ؟ انه مخبوء في صدر هذا البيت فلنبحث عنه .

وواضح ان المتنبي يعبر هنا تعبيرا رمزيا عدديا اساسه ان (الواحد) هو قوام الاعداد جميعا وان اي عدد من الاعداد انما هو تكرار للواحد . ويشير محيي‌الدين بن عربي الى هذه الفكرة في (كتاب الاحدية) قائلا : « فما ثم الا الواحد والاثنان انما هو واحد وكذلك الثلاثة والاربعة والعشرة والمائة والالف الى ما لا يتناهى ، ما تجد سوى الواحد ليس امرا زائدا » (٧٠) .

ولكن ابن عربي كان يعبر بالرمز العددي عن فلسفته في وحدة الوجود ، اما المتنبي فقد عبر به عن فكرة اخرى . انه يقف بالواحد عند العدد (ستة) فهو اذن يكرر الواحد ست مرات فما الذي قصد اليه بذلك ؟

(٦٦) مع المتنبي ـ ص٨٥ .
(٦٧) شرح ديوان المتنبي ـ الواحدي ـ ص١٣٧ .
(٦٨) الديلمي ـ المصدر السابق ـ ص٥٢ .
(٦٩) رسائل ابن العربي ـ كتاب الاحدية ـ ص٥ ـ الطبعة الاولى مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد ـ ١٩٤٨ .

في ظني ان المتنبي يرمز هنا بالآحاد الى (النبي) كما يراه الباطنية ، ويرمز بالسداس الى (الائمة الستة) الذين يتعاقبوه بعد وفاته اماما بعد امام كما يعتقد الباطنية .

يقول الامام ابو حامد الغزالي في كتابه (فضائح الباطنية) وهو يعرض لمعتقدهم في الامامة :

« وقد اتفقوا على انه لا بد في كل عصر من امام معصوم قائم بالحق يرجع اليه في تاويل الظواهر وحل الاشكالات في القرآن والاخبار والمعقولات ، واتفقوا على انه المتصدي لهذا الامر ، وان ذلك جار في نسبهم لا ينقطع ابد الدهر » .

ويقول عنهم كذلك : « ثم انهم قالوا : كل نبي لشريعته مدة ، فاذا انصرمت مدته بعث الله نبيا آخر ينسخ شريعته . ومدة شريعة كل نبي سبعة اعمار ، وهو سبعة قرون . فاولهم هو النبي الناطق ، ومعنى الناطق ان شريعته ناسخة لما قبله ، ومعنى الصامت ان يكون قائما على ما اسسه غيره . ثم انه يقوم بعد وفاته ستة أئمة : امام بعد امام ، فاذا انقضت اعمارهم ابتعث الله نبيا آخر ينسخ الشريعة المتقدمة . »(٧١)

ـ ٥ ـ

ولقد لاحظ النقاد ان المتنبي كان يقصد احيانا الى امتثال الفاظ المتصوفة واستعمال كلماتهم المعقدة ومعانيهم المغلقة وذكروا امثلة على ذلك من شعره .

فما الذي كان يدعوه الى ذلك ؟ أهو التقليد والمحاكاة ؟ كلا ! وعندي ان المتنبي كان يريد بذلك التعمية والتمويه‌يتوسل بهذا الاسلوب الى غرض لم يشأ ان يفصح عنه بوضوح .

ويوضح هذا الذي اقوله قصيدته التي قالها في صباه في ابي الفضل ومطلعها :

كفى أراني ويك لومك اللوما
هم أقام على فؤاد انجما

ومنها هذه الابيات :

يا أيها الملك المصفى جوهرا
من ذات ذي الملكوت اسمى من سما

قال الواحدي : « يريد بالجوهر الاصل والنفس ، وذات ذي الملكوت هو الله تعالى . يقول : ايها الملك الذي خلص جوهرا اي اصلا ونفسا من عند الله ، اي الله تعالى تولى تصفية جوهره لا غيره فهو جوهر مصفى من عند الله تعالى ، وهذا مدح يوجب الوهم والفاظ مستكرهة في مدح البشر » (٧٢) وفي ظني ان شخصية هذا الممدوح موهومة ولا وجود لها .

وان المتنبي يرمز به الى الامام المعصوم كما يراه الباطنية . وهو يشير اليه ايضا بالبيت الذي يليه :

نور تظاهر فيك لاهوتية
فتكاد تعلم علم ما لن يعلما

قال الواحدي في شرحه : « يقول : قد ظهر فيك نور الهي تكاد تعلم به الغيب الذي لا يعلمه احد الا الله عز وجل » (٧٣) .

(٧١) فضائح الباطنية ـ الغزالي ـ ص٤٢-٤٣ .
(٧٢) شرح ديوان المتنبي ـ الواحدي ـ ص١٩ .
(٧٣) المصدر السابق ـ ص٢٠ .

ثم يقول المتنبي :

انا مبصر واظن انني نائم
من كان يحلم بالاله فاحلما
كبر العيان عليّ حتى انه
صار اليقين من العيان توهما

قال الواحدي في تفسير البيت الاول :

« يقول : انا ابصرك واظن اني اراك في النوم ، فانما قال هذا استعظاما لرؤيته ... وذلك ان الانسان اذا رأى شيئا يعجبه وانكر رؤيته يقول ارى هذا حلما » (٧٤)

وقال الواحدي في تفسير البيت الثاني :

« يقول : عظم عليّ ما اعانيه من الممدوح وحاله حتى شككت فيما رأيت اذ لم ار مثله ولم اسمع به حتى صار المعاين كالمتوهم المظنون الذي لا يرى » (٧٥) .

وعندي ان المتنبي لا يعني بالعيان هنا ما يعاينه من الممدوح، ولا يعني به العيان الصوفي ، وانما يريد به انه كان يعاين من وراء حجب الحاضر عالم المستقبل ، فماذا رأى ؟ ما هو هذا العيان الذي كبر عليه حتى صار ما رآه كالمتوهم المظنون الذي لا يرى ؟

في هذين البيتين يبين لنا المتنبي رؤيته : ـ

يامن لجود يديه في اموالـه
نقم تعود على اليتامى انعما
حتى يقول الناس ماذا عاقلا
ويقول بيت المال ماذا مسلما

قال الواحدي في تفسير البيت الاول :

« يقول : جودك يفرق مالك لانه ينتقم منه كما ينتقم من العدو بأهلاكه وتلكم النقم في اموالك نعم على الايتام لان التفريق فيهم ، ولو روى على البرايا كان اعم واشمل لان الايتام مقصور على نوع من الناس » (٧٦)

وقال الواحدي في تفسير البيت الثاني :

« يقول : يفرط في جوده حتى ينسبه الناس الى الجنون

ويقول بيت المال : ليس هذا مسلما لانه فرق بيوت اموال المسلمين ولم يدع فيها شيئا » (٧٧)

وعندي ان هذا المعنى الذي ذهب اليه الواحدي بعيد عن قصد المتنبي ، وان المتنبي كان يعني (بالنقم التي تعود على اليتامى انعما) ان الشر لا يدفع الا بالشر ، وان النقم التي ستصب على الظالمين ، سوف تنقلب لا محالة خيرا على المظلومين، وستعاد الحقوق الى اهلها وستنزع من اهل الجور هنوة كل الاموال التي اغتصبوها ثم توزع بالعدل بين كل المستضعفين والمحرومين (وقد رمز المتنبي لهم باليتامى) .

ويومئذ سيقول الناس ، وهم في ذهول لما يرون لانهم لم يألفوا مثله من قبل : اي جنون هذا !

ويومئذ سيقول القائمون على بيت مال المسلمين ، وقد امروا ان يوزعوا الاموال على مستحقيها من المستضعفين ، وكانوا من قبل قد الفوا توزيعها على المقربين من السلطان : ما بهذا امر الدين !

الا ويل لهم مما يفترون ، او لم يفقهوا قول الله تبارك وتعالى : « ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين » .

وبهذا كان يحلم المتنبي ، والى مثل هذا كان طموحه ، ولعل هذا ما يفسر قوله :

يقولون لي ما انت في كل بلدة
وما تبتغي ؟ ما ابتغي جل ان يسمى

(٧٤) المصدر السابق ـ ص٢٠ .
(٧٥) المصدر السابق ـ ص٢٠ .
(٧٦) المصدر السابق ـ ص٢١ .
(٧٧) المصدر السابق ـ ص٢١ .